هوامش

يشير استمرار الطب التقليدي في الجزائر رغم التقدم العلمي والتقني إلى أن علاجاته نفعت مرضى كثيرين ولا تزال. واللافت أن بعض الأطباء يوصون به في حال «استعصاء» العلاج

الطبّ الشعبي شريك في صحة الجزائريين (بلال بنسالم/ Getty)

الطب التقليدي

«منفعة» متوارثة في الجزائر

الجزائر ـ **كمال بوحدة**

ما زال الطب التقليدي والشعبي يسجل حضوراً لافتاً في الجزائر، وما زال بعض سكانها يفضلون اللجوء إليه والتداوي بالحجامة والأعشاب التي توفرها الطبيعة لعلاج مشاكل صحية وأمراض يستعصي بعضها على الأطباء. من هنا يقصد بعض المرضى معالجين كباراً في السن يزعمون أنهم أصحاب حكمة ورثوها عن أسلافهم. ويبرر هؤلاء المرضى ذلك بالجدوى المحتملة من الطب التقليدي، رغم التطور العلمي الكبير في مجال العلاج بالتقنيات الحديثة، وكذلك بمحاولتهم تجنب استخدام أدوية تحتوي على مكونات كيمياوية وغير طبيعية، كما أن كلفة العلاج التقليدي والشعبي منخفضة.

شفاء بـ«الكيّ»

في منطقة المعايف بمحافظة البليدة (غرب)، افتتح رضا حمياني ما يشبه عيادة صغيرة داخل منزله لعلاج مرض «عرق النسا» الذي شهد انتشاراً كبيراً في السنوات الأخيرة، وبات يستقبل حوالى 15 شخصاً مريضاً يومياً. يشرح لـ«العربي الجديد» أنه ورث تقنيات العلاج التقليدي من أبيه الذي ورثها بدوره من والده، ويصف هذه التقنيات بأنها «حكمة». أما طريقته في العلاج فتلحظ وضعه سكيناً خاصاً قديماً على النار، ثم استخدامه في «كي» المنطقة التي يتألم منها المريض، وهو ما يكرره ثلاث مرات مع قراءة آيات وأدعية، ثم يطلب من المريض العودة على ثلاث مراحل لاستكمال العلاج. يقول رضا الذي زادت شهرته بعدما تعافى أشخاص خضعوا للعلاج على يديه: «استقبلت في عيادتي مرضى شبه مشلولين ويعانون من ألم شديد، علماً أن مرض عرق النسا قد يؤدي إلى عجز تام عن الحركة. لكن نتيجة العلاج الذي أقدمه من خلال الكي ثلاث مرات هي شفاء المريض وعودته إلى المشي بطريقة عادية». ويشير إلى أن «مرض عرق النسا يصيب الأشخاص الذين يجلسون في شكل دائم أو يقودون السيارة لفترات طويلة، أو أولئك الذين يقفون فترات طويلة أيضاً في عملهم، إضافة إلى عمال الورش الذين يحملون الأوزان الثقيلة بوضعيات خاطئة».

في قلب التجربة

خارج العيادة التقليدية لرضا كان موظف في إحدى الإدارات العمومية يدعى سمير، وهو في الأربعينات من العمر، وأخبر «العربي الجديد» أنه قرر تجربة العلاج التقليدي لعرق النسا بطريقة الكي بعدما استنفد كل السبل للتخلص من آلامه الكبيرة التي جعلته يشعر بما يشبه صعقات كهرباء على مستوى العمود الفقري والعضلات الخلفية للفخذ. ويقول: «أجريت كل صور الأشعّة والتحاليل، واستعملت كل الأدوية التي وصفها لي الأطباء، لكن حالتي لم تتحسن، ثم أخبرني أحد أقربائي عن عيادة الطب التقليدي المتواضعة فقصدتها. والحقيقة أنه عندما جئت للمرة الأولى إلى هنا لم أكن متأكداً من جدوى العلاج التقليدي، ولم أكن مقتنعاً بممارساته، لكنني قررت تجربته لأنني لن أخسر شيئاً في أي حال، علماً أن والدتي طلبت مني التوجه إلى العيادة بنية حسنة، وهو ما فعلته. وبعد حصتي علاج فوجئت بتقلص نسبة الألم، وبعودتي إلى المشي بلا أوجاع، ما زاد قناعتي بفعالية العلاج الذي سأستكمل حصته الثالثة والأخيرة اليوم».

باختصار

بعض المرضى يرون جدوى من الطب التقليدي، رغم التطور العلمي الكبير في مجال العلاج بالتقنيات الحديثة

■■■

ممارسات العلاجات التقليدية نابعة من الموروث الشعبي جيلاً بعد آخر، وقد أثبتت فعاليتها تاريخياً في بعض الأمراض

■■■

يصرّ معارضو ممارسات العلاجات التقليدية، على أنّها «لا تستند إلى أساليب صحيحة باستثناء الرقية الشرعية»

زيت طبيعي وثوم

أيضاً يشتهر الطب التقليدي بمعالجته مرض الصداع النصفي أو ما يعرف شعبياً باسم «الشقيقة»، والذي يترافق مع آلام كبيرة في الرأس، وزاد انتشاره أيضاً في السنوات الأخيرة في ظل تفاقم حجم الضغوط الاجتماعية والاستخدام المفرط للهاتف الخلوي وتجهيزات الاتصال الحديثة.

في بيته ببلدة حمر العين (غرب)، يستقبل مروان أرنوفي مرضى الصداع النصفي بوصفة تقليدية يستخدم فيها زيتاً طبيعياً، والتي يدافع عن فعاليتها في توفير العلاج المطلوب. أما الخالة عائشة فتعالج مرض «البوصفاير» الذي تظهر علاماته بوضوح في عين المريض ويؤدي غالباً الى إصابته بنقص الشهية، بالثوم وشفرة حلاقة في طريقة تطبقها منذ ثلاثة عقود، بعدما ورثتها عن أبيها الذي اشتهر سابقاً بعلاج هذا المرض. ويقصد بيت الخالة عائشة في منطقة مناصر قرب مدينة شرشال الأثرية، مرضى من مختلف المناطق والمحافظات. وتقول لـ«العربي الجديد»: «أفحص عين المريض لتأكيد إصابته، ثم أتدخل عملياً عبر جرح يده ومرفقه وجبهته، وأكوي منطقة الجرح بالثوم الأحمر، وأكرر ذلك في ثلاث جلسات كي أضمن فعالية العلاج في القضاء على المرض نهائياً».

اختلاف في التقييم

وتختلف التقييمات العلمية لمثل هذه الحالات من العلاج التقليدي، فبعض الأطباء مثل البروفيسور بوعيطة سليم الذي يترأس مصلحة طب الأعصاب في مستشفى شرشال، لا ينكر في حديثه لـ«العربي الجديد» واقع أن العلاجات التقليدية أثبتت فعالياتها في بعض الأمراض رغم التطور في مجال الطب الحديث، ويقرّ بأنه وجّه بنفسه بعض المرضى إلى معالجين تقليديين، بعد استعصاء تشخيص المرض أو علاجه بالطرق العلمية. لكن الطبيب المتخصص في طب الأطفال سحنون محمد يعارض ممارسات العلاجات التقليدية، ويصفها في حديثه لـ«العربي الجديد» بأنها «لا تستند إلى أساليب صحيحة باستثناء الرقية الشرعية»، مشدداً على أن «معالجين كُثراً يبتزون المرضى ويستثمرون في معاناتهم، علماً أنه لا يخفى أن استخدام العلاجات التقليدية فاقم معاناة المرضى في بعض الحالات، علماً أن الظروف المادية تجبر مرضى على اللجوء إلى علاجات تقليدية منخفضة الكلفة، كما يتسبب الجهل في استخدامهم الخاطئ لأنواع من الأعشاب لا تنفع في معالجة الداء».

مخاطر مبررة

وفي السياق، يقول رشيد زواد الاختصاصي في علم الاجتماع لـ«العربي الجديد» إن «المرضى يصابون بتوترات نفسية تدفعهم إلى الإيمان بأي شخص قد يقدم العلاج لهم. وممارسات العلاجات التقليدية نابعة من الموروث الشعبي جيلاً بعد آخر، وقد أثبتت فعاليتها تاريخياً في بعض الأمراض». ويشير إلى أن العوامل الاجتماعية والأزمة الاقتصادية التي أضعفت القدرة الشرائية لدى الناس وغلاء الأدوية التي يصفها الأطباء، أدت إلى عدم التردد في استعمال أدوية أعشاب ومشتقات حيوانية ومعدنية مجهولة الهوية للتداوي، لكن أشخاصاً كُثراً يمارسون الطب التقليدي البديل في ظل جهلهم الأمراض والطرق السليمة للطب، ما يفسح في المجال أمام انحراف بعض المعالجين الذين يخلطون بين العلاجات الطبيعية والضرورات الطبية.

وأخيراً

عيسى مخلوف، على ضفافٍ أخرى

نجوى بركات

نقلتني قراءةُ الكتاب الصادر حديثا تحت عنوان «ضفاف أخرى» عن دار الرافدين، وهو حوار، أو لنقل «مسامرة» عميقة هادئة، قدّم لها وأجراها بكل براعة الكاتبُ العراقي علي محمود خضيّر، مع الشاعر اللبناني عيسى مخلوف، إلى زمنٍ آخر، كانت للمعرفة والثقافة والكتابة فيه نكهاتٌ أصيلة أخرى. بيد أن الحوار لا يكتفي بذلك، إذ يسافر بقارئه عبر الأمكنة والفضاءات والأزمنة المختلفة، ناهبًا دروبًا كثيرةً تجتمع في جغرافيا الذاكرة والاستحضار والمحاكاة والمساءلة والسرد. بيد أن الاستحضار هنا بعثٌ وانبعاثٌ، لأن الفكرة التي ذُكرت، والتجربة التي مرّت، والجملة التي قيلت، والمعرفة التي خيضت، صنعت النصّ متنا وهامشا، بقدر ما تصنعه الكلمات. الفقد والحرب والموت والهجرة واكتشاف البعيد، المختلف، الآخر الذي لا نشبهه ولا يشبهنا، ومع ذلك، يجمعنا به الكثير. رحلة في ذاكرة عيسى مخلوف؟ لا بل هي رحلةٌ في رأسه حاضرا الآن، طازجة ومستمرّة، من خلال الخوض في المواضيع التي تشغل بال العالم اليوم، وفي ارتداداتها الكثيرة متعدّدة الأبعاد والمستويات. نحن هنا للتأكيد على أن الإبداع فعل حرية، فعل انضمام إلى الإنسانية في جانبها المضيء، وعلى أن الضوء مقابل العتمة، الجهل، الاستبداد، العنف، التمسّك بالماضي والخروج من فضاء الحياة. العنف والقتل لأتفه الأسباب، وضرورة الابتعاد عن جحيم خلقناه بأيدينا في تلك المنطقة من العالم، وما زلنا نغذّيه، ونعيد إنتاجه كل يوم. هو نصٌّ مؤلّفٌ من نصوصٍ ستشدّك إليها رغما عنك، تُحكم وثاقك وتجعلك تعود أحيانًا إلى ما سبق أن قرأتَ فبدا، للوهلة الأولى، وكأنّه سقط سهوًا بين جملتين. لا، لم تخنك ذاكرتك، تُطمئن ذاتَكَ. لقد قيل الكلامُ هذا قبلا في سياقٍ آخر، وها هو في هذا الفصل يُصبح هو السياق. ولا بُد للحساسية العالية التي ينضح بها الحوار من أن تكون حساسية شاعر. ولا بد لهذا الوعي والإدراك من أن يكونا وعي قارئٍ، ملآن بقدر ما هو فارغ، منفتح على الاكتشاف والاستزادة والمساءلة والتعميق، ومنغلق أمام التمسّك بالرأي الواحد والحقيقة المطلقة. لتكن الكلمة هي البدء، ولتكن حقيقةً ونورا وتجلّيا، يتذوّقها موسيقى وأدبا وهندسة معمارية وفنا تشكيليا وأسئلة علمية وبيئية و... وفي النهاية، من يأتي كل هذا الشرّ وذاك الولع المخيف بالتدمير والقتل والعتمة؟

مقابلة وجه الموت باكرا جدا مع فقد الأخ، ثم الهرب من الحرب الأهلية إلى فنزويلا ومنها إلى باريس، ثم الانتقال للعمل مستشارا ثقافيا في نيويورك، ثم العودة إلى باريس. «نحن أيضا محصّلة الأماكن التي نعيش فيها (...) يتشرّبها الكائن وروحه وتصبح جزءا من كيانه». لكنّ الرّائي لا يحتاج الانتقالَ جسديا كي يرى، أو لكي يتحسّس نبض العالم ويسمع أنينه، يشهد على جماله القاتل بقدر ما هو محيٍ للروح. لا خلاص إلا بقول الحقائق، بالنظر إلى الأمام، بصعود السلّم المعرفي والتأرجح فوق حبال اللغات، بالترجمة، بفتح النصّ كائنا ما كان على التأويل، وبتدجين الموت الفردي والجماعي العام. «لا أدري لماذا لم يغادر الشعراءُ بعدُ مع الطيور المغادِرة؟» يتساءل عيسى مخلوف، في العبارة الأخيرة من ديوانه «ما سوف يبقى»، ثم يضيف ردّا على سؤال خضيّر حول هوية جموع الهاربين في الديوان: «هم الذين ولدتهم أمهاتهم تحت نجوم مطفأة ولم يجدوا، حيث وُلدوا، أمكنةً تؤويهم. الهاربون من أنظمة الاستبداد وأهوال الحروب والجوع». أجل، ينطق عيسى مخلوف، بفعل أسئلة محاوره المحفّزة، بما يثقل صدورنا. يلهج بعجزنا، بؤسنا. يرسم بورتريه أمينا لسيرة عالمنا، لما يجري فيه، لأفوله الثقافي السافر وشبه غرقه الحتميّ، فيتحوّل قوله إلى قوةٍ ممغنطةٍ تجمع هواجسنا وتساؤلاتنا وملاحظاتنا حول ما يؤول إليه ذلك الجزء البائس حيث نحيا. من نحن؟ جرحى الكلام المراوغ، مصابو حرائق سوء الفهم، أبناء تزاوج الفنّ والمال والعلم المتقدّم على حبل الهاوية، ضحايا هذا «المناخ القياميّ»، حيث لا خلاص ربما إلا بعبور بوابة الحبّ والجمال.

> ينطق عيسى مخلوف، بفعل أسئلة محاوره المحفّزة، بما يثقل صدورنا. يلهج بعجزنا، بؤسنا

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**